محاضرة بعنوان:

إشكالية استخدام المصطلحات(عبري- إسرائيلي- يهودي) في البحوث التاريخية:

The problematic of using the terms (Hebrew– Israeli – Jewish) in historical research

المادة : التاريخ القديم
المرحلة : الاولى

إعداد:

م. د. مجيد جاسم محمد أحمد الشعيبي

أستاذ تاريخ الأديان – رئاسة جامعة الأنبار

كلية التربية للبنات

إن هنالك اشكالية مهمة، ربما وصفناها بالمعقدة في الدراسات اليهودية القديمة، ألا وهي إشكالية التعامل مع المصطلح، خاصةً المصطلحات التاريخية. فلدينا ثلاثة مصطلحات هي: "عبري و إسرائيلي و يهودي" يدل كل منها على معنى خاص، ويشير في الوقت نفسه إلى مرحلة تاريخية معينة من مراحل التاريخ اليهودي. وهو ما وضع الباحثين في مأزق اختيار المصطلح؛ حيث تنتمي كل شخصية يتناولها لفترة تاريخية يشار إليها بمصطلح بعينه؛ فينتمى إبراهيم مثلاً للعبرانيين، وينتمى يشوع بن نون لبنى إسرائيل، وينتمى أبناء المملكتين للجماعة اليهودية، بل ربما كان منهم من عاصر الانتقال من فترة تاريخية لأخرى، ومن هذا المنطلق وايقاناً من الباحث بأهمية اتباع المنهج العلمي آثر استخدام كل مصطلح في موضعه التاريخي المناسب.

وسنحاول هنا أن نوضح اختلافات هذه المسميات ونشير في الوقت نفسه إلى العلاقات التاريخية والدينية التي تربط بينها، والتي كانت سبباً من أسباب هذا الخلط الذي نراه في استخدامها، ونرتب هذه المسميات ترتيباً تاريخياً حسب أولوية ظهورها في التاريخ اليهودي، موضحين الأسباب التي أدت إلى ظهور التسمية، وإلى هجرها وظهور تسمية جديدة، أو استمرارها إلى جانب التسمية الجديدة مع الإشارة إلى الحدود التي تستخدم فيها التسمية

القديمة مع وجود تسمية جديدة، إلى غير ذلك من المفارقات التي تمخض عنها التاريخ اليهودي.

أولاً: التسمية "عبري– עִבְרִי ":

"عبري"، كلمة مفردة جمعها "عبريون" وترد أيضاً "عبراني" وجمعها "عبرانيون". وقد اختلف العلماء حول أصل هذه التسمية، وظهرت تفسيرات ونظريات كثيرة حول مدلول هذه التسمية؛ فهناك من يربط التسمية "عبري"، بأحد الأجداد القدامى للساميين، وهو "عابر עֵבֶר" بن شالح بن أرفكشاد بن سام، المتكرر في الإصحاحين العاشر والحادي عشر من سفر التكوين، وفيما عدا هذه الإشارة، فإنه لا توجد أية إشارة أُخرى إلى شخصية عابر، ولا إلى أي دور تاريخي له.

وهناك من يرى أن لفظ "عابر "، هو نفسه " عَبِرُ abēru" الصيغة الفعلية على وزن" مَلِكُ " وفقاً للقياس في النحو الأكدي من الفعل" عَبَرَ"، بمعنى " اجتازَ، مرّ "، الذي أطلقه الساميون في القرون الأربعة الأخيرة من الألف الثانية قبل الميلاد، في عهد الدولة البابلية القديمة، على جماعة السومريين المقهورين والفارين من بابل واللاجئين إلى البلدان المجاورة. وقد وجدت آثار نصية تدل على وجود هذه الجماعة في عدد من المواقع مثل: نوزي، وأوغاريت، والعمارنة؛ والنصوص الواردة في هذا الموقع الأخير تدل على وجود الـ "عَبِرُ" في (أرض كنعان). وقد اندثر هؤلاء الـ "عَبِرُ" من البلدان الواقعة على حاشية الدولة البابلية بالاندماج مع السكان، ولم تتخلف سوى المجموعة الخارجة من مصر التي أتاحت لها الظروف التاريخية البقاء. وبذلك انحصرت تسمية الـ "عَبِرُ" بالصيغة المشتقة "عبري" وأضحت اسم ذات له .

ووفقاً لذلك أشار فريق من العلماء أمثال: "هول"(*Hall*)، و "أوسترلي"(*oesterly*)، و "وولي"(*woolly*)، و "أولبرايت"(*AlBright*) ، و "ميك"(*Meek*) وغيرهم، إلى وجود علاقة بين اللفظ "عبري " واللفظين "عبيرو" أو "خبيرو" ، في المصادر المصرية القديمة والمصادر الآشورية البابلية التي اعتادت الإشارة إلى بعض القبائل البدوية ومنها القبائل الآرامية التي

يُقال أن إبراهيم(عليه السلام) ينتمي إليها؛ كما تشير هذه المصادر إلى أن اللفظ "عبيرو" كان يطلق على عدد من القبائل في شمال شبه الجزيرة العربية وفي الشام. فعلى سبيل المثال يقول أولبرايت(*AlBright*): "إن القصص المتوارث عن عصر يعقوب يصورهم (أي العبرانيون) أشباه بدو يوزعون وقتهم بين العناية بالقطعان من جهة وبين النشاط الزراعي من جهة أخرى، وهم في ذلك يشبهون إلى درجة كبيرة العرب أشباه البدو في فلسطين في وقت قريب". ويضيف: "وبعد ما يقرب من ثلاثة قرون منذ عصر آل يعقوب تعرض علينا "ألواح العمارنة" صورة شبيهة في بعض نواحيها بصورة آل يعقوب؛ وفي هذه الوثائق كان "العبيرو" أنصاف البدو يظهرون كمجموعات تجوب المناطق الجبلية".

وفي مقابل ذلك تحفظ أغلب العلماء ومنهم "فرويد" في تقرير أن "العبري" و "العبيرو" من أصل واحد. إذ يشيرون إلى أن "عبري"، هي صفة تدل على النسب والانتماء بوجود ياء النسب في آخرها، بينما " العبيرو" لا تعني غير المزاملة والمرافقة، وتدل على مجموعة من الناس تقوم بعمل واحد دون أن تنسب إلى أصل واحد.

وهناك من يرى أن التسمية "عبري" التي وصف بها أبرام " العبراني" في التوراة، هي إشارة إلى عبوره ومن معه النهر، على الرغم من عدم معرفة أو تحديد اسم النهر، إذ "أن كلمة "יְאוֹר"، التي تعني بالعربية "نهر"، كانت تطلق في التوراة على "الأنهار الكبيرة" دون أن يضاف إليها ما يميز بعضها عن بعض"، فعلى سبيل المثال، كانت هذه الكلمة تُستخدم في مصر، كنايةً عن نهر النيل، فإذا ما ذكرت في التوراة في معرض الحديث عن قصة ما في مصر، كان المقصود بها "نهر النيل"؛ إلاّ أن من المرجح هو "عبورهم نهر الفرات بعد أن هاجروا من مدينة أور الكلدانية". فقد ورد في سفر يشوع(٢٤:٢-٣): "وَقَالَ يَشُوعُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ:« هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: آبَاؤُكُمْ سَكَنُوا فِي عَبْرِ النَّهْرِ مُنْذُ الدَّهْرِ. تَارَحُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَأَبُو نَاحُورَ، وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى. فَأَخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاكُمْ مِنْ عَبْرِ النَّهْرِ وَسِرْتُ بِهِ فِي كُلِّ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَكْثَرْتُ نَسْلَهُ وَأَعْطَيْتُهُ إِسْحَاقَ". وهذا يعني أن هذه التسمية مشتقة من الجذر الثلاثي العبري"עָבַר" المقابل للجذر الثلاثي العربي" عَبَرَ"، حيث يأخذ هذا الجذر في اللغة العبرية معنى "انتقلَ، رَحلَ، أو عَبرَ من مكان لآخر"؛ كما كان الأكديون يقولون "إبر- ناري" أو "إبرتي – ناري" والآراميون يقولون "عَبْر نَهرا"، وقريب منه ما في النقوش العربية الجنوبية. وبالتالي فإن

"إبراهيم العبري" هو "إبراهيم العابر، أو إبراهيم المتنقل". أمّا "إسرائيل ولفنسون"، فقد ردّ على هذا الرأي بالقول: " إن كلمة عبري في الواقع، لا ترجع الى شخص بعينه أو إلى حادثة معينة، وإنما ترجع الى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، ذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من" الأمم" البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة الى أُخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى".

وقد شاطره هذا الرأي "أبراهام مالمات אברהם מלמט" إذ يقول: لا يمكننا أن نستنتج بأن مصطلح "عبري" هو نسبة الى صفة جغرافية تستند الى فكرة "عبور النهر"، فكلمة "עִבְרִי عبري" اَستُخدمت في العهد القديم في مواضع كثيرة، لتدل على جماعة أكبر من جماعة بني إسرائيل، وعلى هذا الأساس فإن اسم "عافيرو" في مصر القديمة، الشائع في الوثائق الأكدية باسم "خابيرو"، كان يضم أيضاً العبيد الأجانب الذين يقومون بأعمال السخرة في مصر على اختلافهم، والذين كان غالبيتهم ساميين من أرض كنعان.

ويقول "بوست" في مصنفه "قاموس الكتاب المقدس": "إن لقب أبرام بالعبراني، يمكن تأويله، على حد قوله، بـ "أبرام السائح أو المهاجر". أمّا ما قيل من أن المصطلح "عبراني"، هو نسبة إلى "أبرا" بمعنى "إبراهيم" مع قلب الألف عيناً في المنسوب، تبعاً للفظ السامي الشرقي، المتأثر بلغات الشعوب المجاورة أمثال، السومريين، والأقوام الهندو أوربية، الذين كانوا يميلون إلى إماتة هذا الحرف(أعني حرف العين)، أو إلى تحويله إلى حرف مد، فلا يمكن التسليم بصحته، كما يقول "لاكين ولیامز"، إذ أن الاشتقاق اللغوي لا يتمشى مع طبيعة اللغة العبرية وقوانينها الصوتية لعدة أسباب منها: أن العين والألف لا يتبادلان في هذه اللغة؛ كما لا يمكن أن نفسر على ضوء القوانين الصوتية العبرية سقوط ميم "أبرام" النهائية نتيجةً لإلحاق ياء النسب بهذا الاسم.

ومن الآراء الأخرى التي قيلت حول هذه التسمية، ذلك الرأي القائل بأن هذا المصطلح ذو مغزى طبقي إجتماعي. ويستند هذا الرأي إلى ما ورد في سفر الخروج(٣:١٣) بشأن المصطلح الإجتماعي "بيت العبودية בֵּית עֲבָדִים"، وإلى بعض الإشارات الأخرى مثل "أبرام العبراني"، الآنفة الذكر، والذي يقصد به إبراهيم الذي كان غريباً في أرض كنعان، كما تصرح بذلك النصوص الواردة في العهد القديم؛ ومن خلال هذه الظروف التاريخية، تحول هذا

المصطلح، إلى مصطلح ذو صبغة إثنية واضحة؛ مما يعني، أن العبرانيون كانوا من الجماعات البدوية الرّحل، وكانت في نظر الشعوب الحضارية في المنطقة، بمنزلة شعوب "عبرية"، أي بدوية، أدنى منهم حضارياً.

ومن الجدير بالذكر، أن تسمية "عبري" قد استخدمت للإشارة إلى نوع معين من العبيد ولتمييز العبد الغريب أو الكنعاني، فالعبد العبري، كما ورد في المشنا: "يُشترى بنقد وسند، في حين يُشترى العبد الكنعاني بنقد وسند وحق تملكه بمضي المدة"(מסכת קידושין פרק א:א،ב-אג) ؛ فقد ورد في الأحكام التي وضعها موسى أمام أتباعه ما يشير إلى ذلك: "إِذَا اشْتَرَيْتَ عَبْدًا عِبْرَانِيًّا، فَسِتَّ سِنِينَ يَخْدِمُ، وَفِي السَّابِعَةِ يَخْرُجُ حُرًّا مَجَّانًا"(خر ٢١:٢).

على أية حال، فإنه ومن خلال عرض الآراء السابقة، يتضح، أن نسبة العبرانيين الى فعل العبور والتنقل في الصحراء أولى، وذلك للمآخذ التي وردت على الأقوال الأخرى، وايضاً لشمول هذا المصطلح لكثير من القبائل الأخرى المتنقلة من مكان لآخر والتي يغلب عليها طابع البداوة والارتحال.

وأخيراً يجب أن نشير إلى أن الكلمة "عبري"، تستخدم للدلالة على اللغة التي تحدث بها هؤلاء العبرانيون ،وهي اللغة الكنعانية القديمة، التي استخدمتها سائر الشعوب في أرض كنعان؛ إلاّ إن اليهود اعتبروا التراث اليهودي هو المهيمن؛ فسمّوا اللغة الكنعانية الأصلية القديمة بـ "عبرية التوراة"، رغم أن اسم اللغة العبرية لم يرد في العهد القديم، ولم توصف "لغة التوراة " في النص التوراتي على أنها عبرية؛ فالعهد القديم يؤكد على تسمية هذه اللغة بـ "لغة كنعانשְׂפַת כְּנַעַן"، وسمّوا اللغة الآرامية التي كُتبت بها لغة المشنا بـ "عبرية المشنا". وبعد ذلك جاءت "عبرية القرون الوسطى" و "العبرية الحديثة". وأُطلق على هذه اللغة تسميات مختلفة مثل: "اللغة المقدسة" و"لغة الحكماء"، لا سيما في الفترة التي أعقبت سبي بابل في القرن السادس قبل الميلاد. وربما يكون مرجع ذلك إلى أن اليهود لم يتحدثوا بلغة واحدة في تلك الفترة حيث توقفت اللغة العبرية عن الاستعمال كلغة حديث ومعاملات، واقتصر استعمالها على الجوانب الدينية البحتة.

أما في العصر الحديث، فإن مصطلح "عبري" قد ارتبط على ألسنة المفكرين الصهاينة بالتراث الثقافي العبري وأصبح، مصطلحاً مقصوراً على المجالات اللغوية والثقافية، ومعبراً عن واقع يهودي جديد أخذ في التكوين على أرض فلسطين منذ عام ١٨٨١م، في انفصال تام عن الواقع اليهودي الشرق أوربي الذي كانت تسوده لغة وثقافة "البيديش"، فقد ركزت الصهيونية على الجانب العرقي للكلمة دون الجانب الديني، باعتبار أن الكلمة تشير الى العبرانيين كجماعة إثنية، كما أسلفنا، قبل اعتناقهم اليهودية؛ وباختيار الصهيونية للغة العبرية، التي اعتبروها من عناصر الإحياء القومي، ولا تقل أهميتها عن "أرض إسرائيل" نفسها؛ فهذه الأرض "أرض الأجداد" ،حسب زعمهم، وتلك اللغة هي لغة التراث اليهودي الديني، وهي كل ما تبقى لهم من الماضي"، ولهذا كانت الدعوة إلى إحيائها، بنداً أساسياً من بنود أي مشروع صهيوني يهدف إلى العودة إلى فلسطين.

ثانياً: <u>التسمية "إسرائيلي- ישראלי":</u>

للتسمية "إسرائيلي" دلالتان: دلالة عامة، ودلالة خاصة. والدلالة العامة، تنسب تسمية "إسرائيل" إلى يعقوب عليه السلام، حيث ترد في التوراة قصة مفادها، أنه نشبت معركة بين يعقوب وملاك الرب حتى مطلع الفجر عند جدول صغير في منطقة الأردن يدعى" يبوق"، ولمّا رأى الملاك أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب، ثم طلب منه أن يطلقه ، فقال: لا أُطلقك حتى تباركني فباركه وقال له: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ»....." لِذلِكَ لاَ يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخْذِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهُ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا"(تك ٣٢:٢٩،٣٣). ومنذ ذلك الحين، فضّل بنو إسرائيل هذه التسمية، التي أصبحت موضع إعتزازهم وفخرهم.

وهذه القصة "لا تخلو من عناصر أسطورية خرافية تم وضّعها لتعليل تغيير اسم يعقوب إلى إسرائيل، ولتعليل تحريم أكل عرق النساء...ويمكن اعتبار هذه الأسطورة من النوع الذي يطلق عليه علماء تاريخ الأديان اسم "أسطورة الأصل Myth of origin" أو "الأسطورة التعليلية أو التبريرية aetiological myth" وهدف مثل هذه الأسطورة، إعطاء تفسير تصوري لأصل عادة أو تقليد أو اسم شيء. وقد اعتبر بعض مؤرخي الأديان هذه

القصة محاولة لتعليل التسمية الجديدة "إسرائيل"، أو أن تشرح عادة إسرائيلية قديمة خاصة بتحريم أحد الأطعمة".

ولفظة "יִשְׂרָאֵל إسرائيل"، مكونة من كلمتين ساميتيّن قديمتيّن هما: "יָשַׂר" بمعنى "يُصارِع"، من الفعل "שָׂרָה" التي تعني "صارعَ، كافحَ"؛ و" אֵל "، أي "إله".

وقد اعتبر باحث لغة العهد القديم "سمحا قوجوط שמחה קוגוט"، أن تفسير الاسم إسرائيل اعتماداً على صورة الصراع مع الرب أمر صعب من ناحيتين: صعوبة البناء والصرف، والصعوبة اللاهوتية؛ إذ أن الأسماء التي تنتهى بالعنصر אֵל "إيل" هي مبنية بشكل عام على هيئة جملة تكون كلمة "אֵל إيـــل" فيها الفاعل(المسند إليه)، وقبلها فعل يعتبر (المسند أو الخبر). فعلى سبيل المثال "יִשְׁמָעֵאל إسماعيل" معناه "سيسمع الرب" و"יְחֶזְקֵאל حزقيال" معناه "سيقوى الرب"؛ وفى المقابل ووفقاً لتفسير العهد القديم لاسم "יִשְׂרָאֵל إسرائيل" فإن "אֵל إيل" ليس المسند إليه لكنه المسند. ومن هنا أيضاً تأتى المشكلة اللاهوتية، فإنه وفقاً لهذا التفسير فإن "إسرائيل" يخلد فشل الإله "אֵל إيل" في صراعه مع الإنسان. فيبدو إذاً، على حد رأي "قوجوط"، أن المعنى الأصلي لاسم "إسرائيل" لا يرتبط بالصراع لكن بالحكم والسلطة "שְׂרָרָה" على أساس أن جذر كلمة "יָשַׂר"، هو الفعل "שָׂרַר" الذي يعني" سادَ، سيطرَ، حَكَمَ".

لقد استند "قوجوط" في رأيه هذا، إلى ما ورد في سفر القضاة من وصف حكم "أبيمالك" لإسرائيل: "וַיָּשַׂר אֲבִימֶלֶךְ עַל-יִשְׂרָאֵל،שָׁלֹשׁ שָׁנִים" فَتَرَأَّسَ أَبِيمَالِكُ عَلَى إِسْرَائِيلَ ثَلاَثَ سِنِينَ" (قض٩: ٢٢). فرأى هنا أن الاسم "שׂוֹרֵר"، الذى معناه "الحاكم" أو "القائد، "قد اشتق من الفعل "שָׂרַר" الذى يعبر عن الحكم والسيادة. مُبيناً أن تركيب الاسم "יִשְׂרָאֵל إسرائيل" على هذا الأساس هو "יָשׂוּר -אֵל ياسور- إيل"، أي أن "אֵל إيل" سيكون حاكماً وملكاً ورئيساً. وإذا كان الأمر كذلك فإن الجملة الكامنة في اسم "יִשְׂרָאֵל إسرائيل"، توازى مقولة: "الرب يملك"(خر١٥:١١)؛ وهو ما يناسب أسلوب اللغة الحورية في وصف ملكوت الآلهة بواسطة استخدام كلمة "שׂר"، من الفعل "יָשׂוּר".

والباحث هنا لا يتفق مع هذا الراي لسبب بسيط، وهو أن الفعل في كلمة "יִשְׂרָאֵל إسرائيل" أصله ماضي بسيط "יָשַׁר"، على وزن "פָּעַל"، ولم يكن بصيغة التضعيف" שִׂרֵר"؛ وبالتالي يكون التفسير الأصح للتسمية "إسرائيل יִשְׂרָאֵל"، هو "יָשַׁר"-"אֵל"، التي تعني، "يُصارع الرب".

وعلى أية حال، فإن المتابع للنصوص الشعرية في العهد القديم، كثيراً ما يجد لفظة يعقوب في صدر البيت، ويقابلها إسرائيل في عجزه، أو العكس بالعكس. فقد ورد في سفر العدد (٧:٢٣): ... " تَعَالَ الْعَنْ لِي يَعْقُوبَ

وَهَلُمَّ اشْتِمْ إِسْرَائِيلَ".

وفي (مز ٧:١٤) نقرأ : "لَيْتَ مِنْ صِهْيَوْنَ خَلاَصَ إِسْرَائِيلَ.

عِنْدَ رَدِّ الرَّبِّ سَبْيَ شَعْبِهِ،

يَهْتِفُ يَعْقُوبُ، وَيَفْرَحُ إِسْرَائِيلُ".

ثم أُطلقت لفظة "إسرائيل" بعد ذلك، لتشير إلى بني إسرائيل عموماً ؛ فعلى سبيل المثال نقرأ في سفر عزرا(٥:١٠): "فَقَامَ عَزْرَا وَاسْتَحْلَفَ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَاللاَّوِيِّينَ وَكُلَّ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا حَسَبَ هذَا الأَمْرِ، فَحَلَفُوا". ونقرأ في السفر نفسه: "وَلَمَّا كَمَلَتْ هذِهِ تَقَدَّمَ إِلَيَّ الرُّؤَسَاءُ قَائِلِينَ: «لَمْ يَنْفَصِلْ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ وَالْكَهَنَةُ وَاللاَّوِيُّونَ مِنْ شُعُوبِ الأَرَاضِي حَسَبَ رَجَاسَاتِهِمْ، مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ وَالْعَمُّونِيِّينَ وَالْمُوآبِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ"(١:٩)؛ كما نقرأ في المدراش أيضاً: "إسرائيل واحد يُخطئ فيعاقب الجميع"(מכילתא)؛ فإنه بمقارنة هذه النصوص نجد، ان لفظة "إسرائيل" أُستخدمت مرادفة لبني إسرائيل.

كانت هذه إذن الدلالة العامة للتسمية "إسرائيلي"؛ وإلى جانب هذه الدلالة العامة، هناك دلالة خاصة للتسمية "إسرائيلي" وهي دلالة سياسية جغرافية متأخرة في الظهور عن الدلالة العامة للتسمية. ويُؤرخ لظهور هذه الدلالة السياسية الجغرافية بحدث تاريخي مهم هو انشقاق مملكة داود وسليمان المتحدة إلى مملكتين متصارعتين: مملكة إسرائيل الشمالية وعاصمتها

"شــكــيــم"، و "تــــرصــــة"، ثم "السامرة"؛ ومملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم (القدس). وقد حدث هذا الانشقاق عام ٩٣٢ق.م تقريباً، وهو العام الذي توفي فيه سليمان(عليه السلام)، "وبانفصام عرى المملكة وانقسامها، انكمشت المساحة الدلالية لمصطلح "إسرائيل"، وغدت صفة قاصرة على المملكة الشمالية التي اعتبرها التراث اليهودي المملكة المارقة، للتمييز بينها وبين مملكة يهوذا التي تمتعت، هي وآل داود، بهالة القداسة والشرعية".

وهنا يجب أن نشير أيضاً إلى أن هاتين الدلالتين، تجدد استخدامها حديثاً مع نشأة الكيان الصهيوني في فلسطين، الذي اختار لنفسه الاسم "إسرائيل"، باعتباره اسماً له دلالة سياسية جغرافية؛ هذا مع استمرار الدلالة العامة للتسمية "إسرائيل"، فانتقلت صفة "الإسرائيلي" من الشعب، الى الدولة، وهو الانتقال الذي أدّى إلى انطباق هذه الصفة على كل من يقيم داخل إسرائيل ؛ علماً بأن الانتساب إلى بني إسرائيل في الماضي، لا سيما أثناء تواجدهم في مصر، كان واضحاً وقوياً ، نظراً لقرب العهد بعصر يعقوب من ناحية، ونجاح الإسرائيليين في الخروج من مصر والاتجاه إلى أرض كنعان على أيام موسى وهارون، وتمام ذلك على أيام يشوع بن نون، من ناحية أخرى؛ إلّا أنه مع بداية الشتات الذي تعود أصوله إلى السبي الآشوري عام٧٢١ق.م، والسبي البابلي عام٥٨٦ق.م، وأخيراً السبي الروماني في عام٧٠م، دخلت الجماعة الإسرائيلية في فترات شتات طويلة المدى عبر العصور الوسيطة إلى تاريخنا الحديث والمعاصر. وقد أدّت هذه الأوضاع بطبيعة الحال إلى ضياع رابطة الدم، في الانتساب إلى بني إسرائيل، بسبب الاندماج في المجتمعات التي اتجه إليها المُهجرون، والذي نتج عنه أيضاً، ضياع ما يُسمى بنقاوة الديانة اليهودية، وانتفاء نسبة من اعتنق هذه الديانة إلى بني إسرائيل القدامى، وبالتالي انسلاخ الإسرائيليين المعاصرين عن الأُصول السامية لبني إسرائيل القدامى.

ثالثاً: "يهودي- יהודי ":

هي التسمية الثالثة في الترتيب التي عُرف بها اليهود، وتأتي بعد التسميتين الأقدم "عبري" و" إسرائيلي" من ناحية الظهور التاريخي والاستخدام. ولهذه التسمية(يهودي) أيضاً دلالتان: دلالة عامة، ودلالة خاصة؛ فمن ناحية دلالتها العامة، هي تسمية تُطلق على كل من يعتنق الديانة اليهودية.

أمّا الدلالة الخاصة، فهي تشير إلى الانتماء إلى كيان سياسي جغرافي هو "مملكة يهوذا" في الجنوب التي ظهرت بعد انشقاق مملكة سليمان إلى مملكتين شمالية وجنوبية. أو نسبة إلى المنطقة التي أقام فيها سبط يهوذا في جنوب كنعان، والتي يُعتقد أنها منطقة "النقب" الصحراوية الفقيرة، حيث ظهرت أسماء جغرافية تُنسب إليهم مثل: "جبل يهودا"(يش١١:٢١؛٢٠:٧؛٢١:١١،..وغيرها)،و"أرض يهودا" أو "بلاد يهودا" (أر٣١:٢٣؛٣٧:١؛٣٩:١٠؛.. وغيرها)؛ وأول شخص في العهد القديم حمل اسم "يهودي" كان "בָּרוּךְ יְהוּדִי بَارُوخَ يَهُودِيَ" (أر٣٦:١٣)، ومن الواضح أنه اسم علم. كما ورد اسم "يهودي" مرة أخرى على أنه اسم ذات مطلق، وحدث ذلك في فترة متأخرة، وتمثل في كنية "מָרְדֳּכַי مردخاي"(أس٢:٥)، وربما كان صفة نسبية. ولكن مصطلح "يهود" باعتباره دالاً يُشير إلى كيان إثني معين، لم يظهر سوى في سفر إرميا(٣٢:١٢): "وَسَلَّمْتُ صَكَّ الشِّرَاءِ لِبَارُوخَ بْنِ نِيرِيَّا بْنِ مَحْسِيَا أَمَامَ حَنَمْئِيلَ ابْنِ عَمِّي، وَأَمَامَ الشُّهُودِ الَّذِينَ أَمْضَوْا صَكَّ الشِّرَاءِ أَمَامَ كُلِّ الْيَهُودِ الْجَالِسِينَ فِي دَارِ السِّجْنِ".

وكلمة "يهودي" كمصطلح لها تاريخ نذكره هنا باختصار ؛ فهيّ في أصلها الأول تعود إلى الاسم "يهوذا"، "وهو الابن الرابع من أبناء يعقوب من "ليئة" الذي وُلد في بيت لابان في فدان آرام(تك٢٩:٣٥)، وهو أبو السبط الذي تسمّى باسمه؛ والاسم " יְהוּדָה يهوذا" أصله "אוֹדֶה"، بمعنى "أحمدُ، أو أشكرُ"، "من الفعل "אדה"، بمعنى "حَمدَ، أو شَكرَ"، وهو مُفسر في التوراة وفقاً لقول "ليئة" ساعة ولادته: "הַפַּעַם אוֹדֶה אֶת־יְהוָה" بمعنى «هذِهِ الْمَرَّةَ أَحْمَدُ الرَّبَّ»(تك٢٩:٣٥). ثم ما لبث أن يكون هذا الاسم، لقباً شمل كل المعتنقين للدين اليهودي في كل أنحاء الأرض مهما كان أصلهم، ومهما كانت لغتهم، ومهما كانت جنسياتهم.

أمّا صيغة الجمع العبرية للاسم "يهوديיהודי"، فهي "יהודים". والملاحظ بأن التسمية "יְהוּדָה يهودا"، التي أطلقت على هذا السبط، هي تركيب مؤنث، ينفرد عن بقية التسميات الأخرى لأسباط بني إسرائيل، التي حملت جميعها سمة التذكير أمثال: أفرايم، وبنيامين، وجاد، وأشير، و يساكر...الخ.

ولغرض إعطاء الخلفية التاريخية التي توضح مكانة "يهوذا" في تراث بني إسرائيل السابق على الظهور السياسي لمملكة يهوذا، بعد إنقسام مملكة سليمان، نورد ما ذكرته دائرة المعارف

العبرية بهذا الشأن حيث تقول: " لقد برز "يهوذا" من بين جميع إخوته في قصة يوسف، فهو الذي أنقذ يوسف من الموت، وتأمل أيضاً فكرة رأوبين في إعادة يوسف ليعقوب، وحمل نصيحة لإخوته تتمثل، في بيع يوسف للمصريين "بدل قتله"(تك ٣٧: ٢٦-٢٧)؛ فقد كان معروفاً، في ذلك الوقت، بقوة تأثيره على إخوته، وعلى أبيه بصورة أكبر من تأثير رأوبين الأخ الأكبر، فكان زعيماً ومرشداً لإخوته. ونتيجة هذا كله، انتزع البكورية من بينهم؛ فكان هو من نال ثقة أبيه وليس رأوبين(تك٤٢: ٣٣-٤٣) والاتفاق الذي اقترحه في أخذ بنيامين إلى مصر وتحمله مسئولية أخيه، وموقفه من العائلة يُفهم ضمناً من قوله: "أَنَا أَضْمَنُهُ. مِنْ يَدِي تَطْلُبُهُ. إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ وَأُوقِفْهُ قُدَّامَكَ، أَصِرْ مُذْنِبًا إِلَيْكَ كُلَّ الأَيَّامِ"(تك٤٣: ٩) ؛ بل إن المصدر اليهوي، يعتبره أهم من يوسف نفسه لأسباب عدة أهمها: أن "يهوذا" لعب الدور الأكبر في حماية يوسف من الموت؛ يُضاف إلى ذلك أنه هو الذي تسبب في بقاء أبيه وإخوته أحياء أثناء المجاعة التي حلت في أرض كنعان، وذلك بعد أن أقنع أباه "يعقوب" بضرورة إرسال بنيامين، شقيق يوسف من إمه "راحيل"، معه إلى مصر حسب طلب يوسف، وإلّا مُنع عنهم القمح اللازم لنجاتهم من المجاعة؛ وأخيراً ينال يهوذا وبنوه الملك على إخوته في بركة يعقوب التي وردت مفصلةً في الإصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين، هذا بينما يصبح يوسف نذير إخوته. وهنا تتضح ميول المصدر اليهوي في جعل يهوذا الوارث الحقيقي ليعقوب(عليه السلام).

ومهما يكن من أمر، "فقد شاعت هذه التسمية "يهود" أثناء السبي البابلي (٥٨٦-٥٣٨ق.م)، ثم غدت لقباً لجميع العائدين من السبي، ذلك أن الأسباط العشرة التي كانت تتكون منها "مملكة إسرائيل"، قد ضاعت في زوايا النسيان منذ السبي الآشوري عام ٧٢٢ق.م. وهكذا نجد في هذه المرحلة، التوسع في استخدام التسمية "يهودي" ربما للدلالة على كل اليهود، سواء من مملكة يهوذا أو مملكة إسرائيل؛ وربما يكون قد قُصد منه تحقيق غرضين، الأول: اكتساب معنى سياسي أوسع للتسمية بأن يشمل كل سكان مملكة إسرائيل في الشمال، وكل سكان مملكة يهوذا في الجنوب؛ على الرغم من أن تاريخ المملكة الشمالية ظل إلى حد ما مستقلاً عن تاريخ المملكة الجنوبية. ولكن نظراً لانتهاء الوجود السياسي لسكان المملكة الشمالية، فقد طمع سكان المملكة الجنوبية في احتواء أولئك سياسياً ولو بالتبعية الشكلية المحضة إلى كيان يهودي تمثله مملكة يهوذا. فإنه "عندما بدأت الشريعة اليهودية

بالتحديد تفقد سطوتها على العقل اليهودي، أصبح من الضروري توسيع القاعدة الشعبية للعقل القومي اليهودي كنوع من التعويض عن تضاؤل الكيف بزيادة الكم".

أمّا الغرض الثاني؛ فهو محاولة اكتساب معنى ديني للتسمية "يهوذي" والتي كانت خالية من أية دلالة دينية، حيث كانت تشير فقط إلى الدلالة السياسية الجغرافية. هذا في الوقت الذي احتفظت فيه التسمية "إسرائيلي" بما أسميناه بالدلالة العامة؛ ولذلك لا نستبعد أن يكون سكان يهوذا قد طمعوا في إحراز كسب ديني خلال فترة وجودهم السياسي.

وبعد هذا العرض للمصطلحات "عبري و اسرائيلي و يهودي"، بقي لنا أن نقول كلمةً بحق الأرض التي ستدور حولها هذه الدراسة قبل الخوض في التفاصيل.

لقد أُطلق على هذه الأرض، الواقعة جنوبي سوريا وشرقي البحر الأبيض المتوسط، أسماء كثيرة، ولعل أقدم هذه الأسماء : "خارو"(***kharu***) للجزء الجنوبي؛ و "رتينو"(***Retenu***) للجزء الشمالي، اللّذين أطلقهما قدماء المصريين، ثم سُميت البلاد بـ "أرض كنعان" أو "كنعان". وتوجد أقدم إشارة، على حد علمنا، إلى هذه التسمية في رسائل تل العمارنة، التي يرجع عصرها الى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، والاسم الذي تذكره هذه الحفريات هو، "كيناحي ***Kenahi***"، أو "كيناحنا ***Kenahna***".

وتسمية "كنعان" أو "كنعانيون"، التي كثُر ورودها في العهد القديم، وردت للدلالة على أرض فلسطين وعلى شعبها؛ ولكن هذه التسمية ليست توراتية كما يعتقد "نوث ***Noth***"، فقد استعملها المصريون للدلالة على المناطق الجنوبية الغربية من سوريا، وهي المناطق التي كانوا على احتكاك بها منذ بدايات التاريخ المصري. وترد التسمية في النصوص المصرية بصيغة "بي كنعان"(***Pe kanan***)، وقد بقيت هذه التسمية مستخدمة في العصر الهيلنستي، علاوة على استخدامها في المصادر الكلاسيكية.

وقد اختلف الباحثون في أصل تسمية "كنعان"، فقيل أن أصل التسمية سامي "كنع" أو "خنع" التي تعنى: "الانخفاض، الهبوط"؛ ويُقصد بها الأرض المنخفضة التي سكنها الكنعانيون، وخاصةً الساحل، للتمييز بينها وبين الأراضي المرتفعة المحاذية لها. فكلمة "كنع" وفقاً لما ورد في المعاجم العربية، تأتي بمعنى: خضع؛ و "أكنع" بمعنى: دنا من الذلة، أو ذل للشيء. وقيل

"أكنع الإبل" بمعنى: أدناها وهو ما يتوافق مع ما ورد في المعاجم العبرية التي أوردت، أن كلمة "כָּנַע"(*Kanea*) تأتي بمعنى: خَنَعَ- رَضَخَ- أذعَنَ- إنصاعَ...، ومنه "נִכְנַע"(*Niknea*)، بمعنى: راضخ - مُذعن- خاضع....

وعلى هذا الأساس، فإن من المرجح أن أصل التسمية "كنعان"، أنها "تسمية لمنطقة جغرافية بالدرجة الأولى، لا تسمية لشعب معين، وهذه المنطقة هي الأراضي الممتدة على طول الساحل السوري ابتداءً من أوغاريت، أو مما يليها على الأغلب، مع بعض الامتدادات نحو الداخل.

ومنهم من شكك في أصله السامي ورأى أن أصله هندو أوربي من كلمة حورية هي "كناجي" (*Knaggi*) بمعنى، "صبغة حمراء"، "التي تُستخرج من أحد أنواع الأسماك الصدفية التي توجد على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط"، ومنه أُخذت الكلمة الكلدانية "كناحي" أو "كنحي" التي أُشير بها إلى "كنعان" أي بلاد الأرجوان، لشهرتها بهذه الصباغة.

ويرى "بروكلمان"، أن محرري التوراة كانوا قد تعمدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام، لأسباب سياسية ودينية، ستتضح من خلال هذه الدراسة، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات عنصرية ولغوية.

و "كنعان"، استخدمت في التوراة للإشارة إلى: الابن الرابع لحام بن نوح استناداً لما ورد في(تك١٠:٦): "وَبَنُو حَامٍ: كُوشُ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطُ وَكَنْعَانُ". وقد لُعن كنعان، حسب التوراة، بسبب الفضيحة التي صنعها حام مع نوح(أبيه) ليكون كنعان بعد ذلك عبداً ذليلاً خاضعاً لذرية أخويه سام ويافث(تك٩:٢٥)، علماً بأن حام لم يُلعن لأنه سبق وأن باركه الرب "وَبَارَكَ اللهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ"(تك٩:١). وقد راج هذا الإسم كثيراً في الكتابات الأكدية والمصرية والأوغاريتية، باعتباره اسماً لشعب، أو لطبقة.

ووفقاً للعهد القديم أيضاً، استخدمت "كنعان" للإشارة إلى:

* أرض كنعان، قبل استيطان بني إسرائيل "فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنَيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ"(تك١٢:٥).

* لقباً لتاجر، نظراً لكون أغلبية الكنعانيين يعملون بالتجارة: «مِثْلُ الْكَنْعَانِيِّ فِي يَدِهِ مَوَازِينُ الْغِشِّ. يُحِبُّ أَنْ يَظْلِمَ"(هو١٢:٨)؛ كما وورد ايضاً في(أمث٣١:٢٤): "تَصْنَعُ قُمْصَانًا وَتَبِيعُهَا... عَلَى الْكَنْعَانِيِّ(التاجر)".

* شعوب كنعان السبعة، وهي الشعوب التي استوطنت في أرض كنعان قبل الاحتلال العبري وهم: الحثيون، والجرشانيّون، والأموريّون، والكنعانيّون، والفريزيّون، والحويّون، واليبوسيّون(تث٧:١٠).

* لقب لفينيقية، وهي منطقة الأرض الممتدة على طول ساحل البحر المتوسط، في شمال أرض كنعان، بين صور وأرفاد؛ ولأن الفينيقيين كانوا قريبين جداً من الكنعانيين في الدين، واللغة، والأصل.

فإنه، وفقاً لليونان والرومان، دُعيت كنعان بـ " فينيقية "، ثم انتقل الاسم "كنعان" ليشمل فلسطين(أرض بلشتيم פלשתים) فنحن نقرأ في سفر صفنيا(٢:٥): «وَيْلٌ لِسُكَّانِ سَاحِلِ الْبَحْرِ أُمَّةِ الْكِرِيتِيِّينَ كَلِمَةُ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ: «يَا كَنْعَانُ أَرْضَ الْفِلِسْطِيِّينَ، إِنِّي أُخْرِبُكِ بِلاَ سَاكِنٍ». ومن هنا جاء في أقوال يديديا السكندري"(فيلون السكندري*Philon Alexandrie*) ، ويوسف بن ماتيتياهو(يوسيفوس *Josephus*)، وفي أقوال المؤرخ اليوناني "هيرودوت" الإسم "فلستينا" كإسم لكل أرض كنعان، كما ذُكر ذلك أيضاً في "مدراش ربا".

وقد أُطلق على هذه الأرض في العهد القديم عدة تسميات منها: "אֶרֶץ-כְּנַעַן أرض كنعان"(تك١٣:١٢، وغيرها)، و "אֶרֶץ הָעִבְרִים أرض العبرانيين"(تك٤٠:١٥)، و "אֶרֶץ יְהוָה أرض الرب"(هو٩:٣)؛ و "אֶרֶץ יִשְׂרָאֵל أرض إسرائيل"(حز٢٧:١٧؛٤٧:١٨، ٤٠:٢؛ ١صم١٣:١٩،...وغيرها)؛ كما وصفها إرميا بـ "אֶרֶץ חֶמְדָּה الأرض الطيبة"(أر٣:١٩).

أمّا حدود هذه الأرض، وكما جاء في سفر العدد، فتمتد من "برية سين"، و"قادش برنيع " في الجنوب إلى حماة، و"ربلة" في الشمال، ومن ساحل البحر المتوسط غرباً إلى نهر الأردن شرقاً، كما كانت أرض جلعاد جزءاً منها؛ وإن أهميتها، إنّما تكمن في موقعها الفذ بين مناطق الشرق الأوسط، فهي بالنسبة لخريطة العالم حلقة اتصال بين أوربا وآسيا وأفريقيا، لا سيما وأنها متصلة بكل من البحرين: البحر الأبيض، والبحر الأحمر.

ونتيجةً لهذا الموقع الجغرافي، الذي امتازت به هذه المنطقة في تاريخها القديم، ونتيجة لكثرة اتصالها بالتاريخ السياسي والروحي للعالم آنذاك، ووقوعها بين عواصم مصر وبلاد الرافدين، تعرضت هذه الأرض لغزوات كثيرة سلمية، وغير سلمية؛ "فهذا الموقع، قد جاءها بالتجارة، كما جاءها بالحرب". وقد أدى الى تغيرات وتحولات عاصفة في مصير ساكني هذه الأرض، وترك بصمته في كل نواحي الحياة، في حياتهم الفكرية والثقافية والمادية، في الاقتصاد وفى التركيبة السكانية، وفضلاً عن كل ذلك في نهجها السياسي والعسكري وهو الذى شكل اذاً بقدر كبير تاريخ هذه الأرض.

وقد أُطلق على الأقوام المهاجرة، إلى أرض كنعان من جزيرة العرب، اسم "الأقوام السامية"، فهذه الارض المحصورة بين البحر والصحراء، كانت طريقاً من الطراز الأول يربط غرب آسيا بالبحر الأبيض المتوسط وبمصر على وجه الخصوص، لذا هبطت إليها عشائر تنتمي لأمم كثيرة منذ فجر التاريخ، بدياناتها وحضاراتها ولغاتها. عاش فيها نازحون من مصر القديمة، ومن العراق القديم، ومن فينيقيا، ومن كريت وقبرص، بل من سكان المناطق الجبلية في داخل آسيا . وهذا الموقع نفسه جعل من كنعان، عندما كانت تتصادم الإمبراطوريات الكبرى المتنازعة على مصير العالم المعروف في أيامها، موقعاً استراتيجيا على أكبر جانب من الأهمية، اقترن اسمه بعدد كبير من المواقع الحربية الفاصلة في التاريخ القديم. وما تزال مقدرات هذه البلاد تخضع لنفس الاعتبارات إلى يومنا هذا.